كتاب الشباب

# رأس الغول



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

# رأس الغــول

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة المعارف

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

راس الغول - الرياض

٤٠ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٩-٩٩٨-٢٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - المغرب أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٦٤ ٢٢/٢٨١١

رقم الإيداع: ٢٢/٢٨١١ ردمك: ٩-٩٩٨-٢٠-٩٩٦٠

**الطبعة الأولى**

**١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م**

**حقوق الطباعة محفوظة للناشر**

**الناشر**

**مكتبة العبيكان**

**الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة**

**ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥**

**هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩**



باتَ ( يوسفُ الكافي ) يحلُمُ برحلةِ صيدِ الطيورِ التي سيذهبُ فيها صحبةَ أخيه في صباحِ اليوم الموالي.

ولو كان يدري ما سَيَراهُ في ذلك اليوم من أهوال لفكَّر كثيراً قبلَ أن يَتْبَعَ أخاه! كان أخوه ( نديمٌ ) قد وعَدَه باصطحابهِ مع جماعة منْ رفاقِه في رحلةٍ لصيدِ الطيورِ. واشترطَ عليه صُنْعَ بيت كبيرٍ من الخشبِ والشِّباكِ على سطح الدارِ للطيورِ التي سيصطادونها.

وقضى ( يوسفُ ) بياضَ نهارهِ في صُنْعِ البَيْتِ. وأوى إلى فراشِه مُرهَقًا وبات الليلَ يحلُمُ بالطيورِ والشِّباكِ والأصدقاءِ.

ومع أولِ أشعَّةِ الصباح كان الاثنانِ في طريقِهما إلى لِقاءِ الجماعةِ ببابِ المدينةِ الخارجيِّ. كان ( يوسفُ ) يحْمِلُ على ظهرِه كيسَ الطعامِ وقفَصًا صغيراً.

وعلى بوابةِ المدينةِ الأثريةِ وجَدَ ( نديم ) رفاقَه الأربعةَ ينتظرونه وفوجئوا بأخيه ( يوسف )، ولكنهم رحَّبوا به ومازَحُوه.

كان ( يوسف ) في السادسةَ عشرةَ، ويكبُرُ أخاه ( نديمًا )

بِسَنَتَين. وكان مُغوليًّا* لا تتجاوزُ سنه العقليةُ العاشرة. فكان أخوه (نديم) يعُدُّه أصغرَ منه، ويَحميه من اعتداءِ الأطفالِ القُساةِ.

وسأل "نديم" عن رحّال، قائدِ الجماعةِ وأكبرِها سِنًّا، فقيل له إنه ذهبَ لِقضاءِ حاجةٍ لوالِدهِ، وسَيَلحقُ بهم.

ولَيْتَه ما كان فَعَل!

ومشى الأولادُ الستَّةُ بجانبِ طريقِ السياراتِ مُدَّةً، ثم انحرفوا عنه إلى طريقٍ للراجلين ينعرِجُ بين المزارِعِ والحقولِ الخضراءِ.

* * *

وبعد حوالي نصفِ ساعةٍ من السَّيرِ الحثيثِ، أشرفوا من فوقِ أحدِ التِّلالِ على غابةٍ كثيفةٍ سوداءَ تنتهي عندها الطريقُ. والْتفتوا إلى الخفِ بحثًا عن "رحالٍ"، فلم يروا له أثرًا على مَدِّ البصرِ. وعلَّق إبراهيمُ: «لابدَّ أن والدَه احتاجَه للجلوسِ في الدكانِ.»

* مصابا بالمغوليَّة، وهي بلاهة خَلْقية يكون الطفلُ المصابُ بها عند ولادتِه منحرِفَ العينين، مسطَّحَ الجمجمة، عريضَ اليدين، قصيرَ الأصابع.

وتأسَّفوا لتخَلُّفِه عنهم، فقدْ كان أعرفَ الجماعةِ بمكانِ الطيورِ وبِحِيَلِ الصَّيدِ ونصْبِ الشِّباكِ والفِخاخِ للطيورِ. وقرروا أن يعتمدوا على أنفسهم.

وعلى مَدخَلِ الغابةِ، توقفوا لينظروا خلْفَهم مرةً أُخرى قَبْلَ وُلوجِها.

وما كادوا يتوغَّلون في الغابةِ الكثيفةِ الظليلةِ حتى داخَلَهم شعورٌ غريبٌ بِهَيْبَتِها وجَلالِها وأسرارِها وجَمالِها، فمشَوا صامتين يُنصِتون إلى أصواتِها العجيبةِ.

وبينما هم يَتلمَّسون طريقَهم بين الأشجارِ العاليةِ المتشابكةِ، سمِعوا زَعْقَةً مُخيفةً شَقَّتْ هدوءَ الغابةِ ولمْ يعرفوا مَصدَرَها، وسقط أمامَهم من فوقِ شجرةٍ هنديٌّ أحمرُ بكاملِ زينتِه... وقف في وجهِهِم رافعًا بيُمناهُ شاقوراً* وبيُسراهُ رُمحًا مزيَّنًا بالرِّيشِ. ووقف يرقصُ أمامهم رقصةَ الهنودِ الحمرِ، ويُغنِّي غناءَهم وهم ينظرون إليه في ذُهولٍ. أما (يوسفُ) فقد جَحظتْ عيناه من الرُّعبِ!

---

* الشاقور: سكين كبير يستخدمه الجزار.

وفـزِعَ الأولادُ أمـامَ تهـديدِ شـاقـورِ (الهـندي الأحـمـر) وصُراخِه العالي المرعبِ! وكان يوسفُ أشدَّهم فَزَعًا وأسبقهم إلى الفرارِ. وثبتَ إسماعيلُ الرويفي في مكانه، وكان طويلاً عريضًا وقويًا. وحين اقتربَ منه الهنديُّ ورفعَ الشاقورَ في وجهه، أمسَكَ باليَدِ التي تحملُ الشاقورَ، وقبضَ على عُنقه باليدِ الأخرى، فتحوَّل غناءُ الهنديِّ وتهديدُه إلى غرغرةٍ في حلقهِ وصُراخٍ مُضحكٍ كصراخِ الديوكِ!

وانفجر إسماعيلُ ضاحكًا، وأخذَ ينادي رفاقَه الهاربينَ ليعودوا:

«لا تَخافوا! إنه رحَّال!»

وعادتِ الجماعةُ، وقدْ تحوَّلَ فزَعُها إلى مَرَحٍ وضَحِكٍ، واجتمعوا حَوْلَ رحَّالٍ الطويلِ القامةِ، يمُازحونهُ ويَكزُونَهُ على أكتافهِ وظهرهِ، وهو سعيدٌ بنجاحِ عمليَّته التَّنكُّريةِ!

وبدأَ يوسفُ يقتربُ مثلَ وحشٍ ابتعدَ عنه الخطرُ وزايلهُ الخوفُ. وحينَ رآه رحالُ اختَفَتْ ابتسامتُه، وأَوْمَأَ إليه سائلاً بامتعاضٍ: «مَنْ جاءَ برأسِ الغولِ هذا؟»

فقالَ نديمٌ: «إنَّه أخي يوسُفُ.»

فقال رحَّال مُستنكرًا: «يوسُفُ!؟ سَمَّيْتُم هذا المِسْخَ يوُسفَ؟! وسيدنا يوسُفُ كانَ أجملَ الأنبياءِ!»

فقال إسماعيلُ الرويفي مُدافِعًا عن يوسفَ الذي كان يُتابعُ النقاشَ ببلاهةٍ وكأنهُ لا يَعْنيهِ: «دَعِ الفتى وشأنَهَ! ذلك نَصيبهُ. وما فيه يكفيهِ!» فصاح رَحَّال: «إننا لم نَتَّفِقْ على أنْ يأتيَ معنا؛ لذلكَ عليهِ أن يعودَ منْ حيثُ أتى...»

فقال نديمٌ متأثِّرًا برفض رحَّالٍ لأخيهِ المسَالِمِ اللطيفِ بذلكَ الأُسلوب العنيفِ: «ولكنْ لماذا؟ إنه لنْ يكونَ عِبْئاً على أحدٍ...»

فأجابَ رحَّال مُنفَعِلاً: «لماذا؟! أقول لكَ لماذا... نحن ذاهبونَ لِصَيدِ الطيورِ. وصيدُ الطيورِ يحتاجُ إلى أكبرِ نَصيبٍ منْ حُسْنِ الحظِّ وسَعْدِ الطّالِع، وأمثالُ هذا المعوَّقِ يَحملونَ معهم الشُّؤمَ وسوءَ الطالعِ! سَمِعْتُها بأذنيَّ مِنَ السِّي مباركٍ!»

فأيَّدَهُ إبراهيمُ العسريُّ قائلاً: «فعْلاً، أنا كذلكَ سَمِعْتُها مِنَ السّي مباركٍ.»

فقال نديمٌ مُتعضًا ومُسْتَخفًّا: «أنتما تلميذانِ في الثانوي، وتُؤمِنان بخُرافاتِ المشعْوِذينَ والجهَّالِ!»

فقال إبراهيمُ: «إنَّه حكى لنا عدةَ أمثلةٍ عن عددٍ من الأشخاصِ نعرِفُهم منْ هذا النَّوعِ.»

فقاطَعَهُ رحَّال ليحكيَ حِكايةَ (إدريس الشرقي) الذي خرجَ لصيدِ السَّمَكِ مع الرَّيسِ (رُويِكْلٍ) في مركبِه، بعدَ أنْ رفَضَهُ جميعُ أصحابِ المراكبِ لِشُؤْم طالَعِه، وعادتْ المراكبُ كلُّها عامرةً بالأسماكِ لحدٌ الغَرَقِ، وعادَ رويكلٌ فارغَ الوِفاضِ.

فقال عَسُّو ضَجِراً منَ الجدَلِ القائمِ: «هل سنقْضي بياضَ نهارِنا نَتَجادلُ حول هل الولدُ مشؤومٌ أو غيرُ مشؤومٍ، ونضيعُ رِحْلَتنا؟»

فاغتنمَ رحَّال الفرصةَ وصاحَ منتصراً: «أَلَمْ أَقُلها لكُمْ؟! إنَّ جدالَنا هذا ما هو إلا علامةٌ مِنْ شُؤْمِ رأسِ الغولِ؟»

وتَوجَّه إلى نديمٍ: «أرجوكَ، يا نديمُ، أرسِلْ أخاكَ إلى البيتِ، ودَعْنا نستأنِفُ رِحْلَتنا...»

وكان يوسفُ يُنصِتُ إلى ما يقالُ من خارجِ الحلقةِ، وقد

خرجَ رأسُ لسانِه، وكأنَّ الكلامَ لا يعنيهِ. ونظَر إليهِ أخوه نديمٌ مُتجهِّمَ الوجْهِ، فابتسمَ له ببلاهةٍ. قال عسو: «إنَّه مسكينٌ، ويعزُّ علينا جميعًا ألاَّ يذهبَ معنا، ولكننا لا نستطيعُ المغامرةَ برحلتِنا هذه من أجْلهِ. فقد يكون السِّي مبارك مشعْوِذًا، وقد يكون مُحِقًّا فيما قال!»

ووقفتْ في حلْقِ نديمٍ غُصَّةٌ حاميةٌ حينَ لمْ يقفْ أحدٌ بجانبهِ. وتوجَّه نحوَ أخيه، وأمسَكَ بيدِه، وجَذَبَهُ: «تعالَ...»

فقال رحّالٌ: «سننتظرُكَ على شَطِّ البُحَيْرَةِ. ولنْ نبدأَ الصيدَ حتى تعود.»

وقادَ نديمٌ أخاه من يدِه، وهذا يسألُ:

– إلى أين نحن ذاهبان؟

– ستعودُ أنتَ إلى البيتِ.

– وأنتَ؟

– أنا سأذهبُ معهم.

– أنا كذلك أريدُ أن أذهبَ معكُم...

- إِنَّهم لا يريدونكَ معهم! ألمْ تسمعْ ما قالوه عنكَ!؟

وتجهَّمَ وجهُ يوسُفَ، وكأنه حُرِمَ من الجنَّةِ، وقال مُجادلاً وهو يتبعُ أخاه الذي كانَ يجذبُه من يدِه:

- ولكنني صنعتُ بيتَ الطيورِ...

- سآتيكَ بجميعِ الطيورِ التي سأقبِضُ. وإذا ذهبتَ معنا فقدْ لا نقبضُ شيئًا بالمرة!

فحرنَ يوسفُ، ورفضَ أن يتحرَّك:

- لا أريد أن أعودَ! أريدُ أن أذهبَ معكم، وأصطادَ الطيور...

فصاحَ فيه أخوه، بعد أن عجزَ عن تحريكِه:

- إذا لمْ تَعُدْ، سأتركُكَ هنا للحيواناتِ تفْتَرِسُكَ!

ودفَعهُ إلى الوراءِ، وولاَّه ظهرَه، وسارَ بخطواتٍ واسعةٍ، متظاهرًا بأنه عقدَ العزمَ على تركِه والالتحاقِ برفاقِه.. وبعد بضعةِ أمتارٍ توقَّف والْتفتَ فإذا يوسفُ يركضُ خلفَه. فصاح فيه:

- ألمْ أقلْ لكَ ارجعْ إلى البيت!؟

فلمْ يُجِبْ، ووقفَ ينظرُ إليه بإصرارٍ وعِنادٍ. فانحنى نديم وكأنه يلتقِطُ حَجَرًا ليرميَهُ به، فتراجعَ يوسفُ قليلاً، ثم توقَّف. والْتقط نديمٌ حجرًا وهدَّده به فانحنى يوسفُ ليَتفاداه وكأنهَ رماهُ فعلاً. وركضَ أخوه نحوَه رافعًا الحجَر فهربَ يوسفُ. وبدَلَ أنْ يأخُذَ طريقَ العودةِ إلى المدينةِ دخَل الغابةَ للاحتماءِ بها من أحجارِ أخيه. وتبِعَهُ نديمٌ وهو يصيحُ فيه: «ارجعْ إلى هنا! ستَتيهُ في الغابة، وتأكلك الوحوشُ!»

وتوغَّل يوسفُ في الغابةِ، وتبعَه أخوه يناديه وهو لا يجيب.

* * *

ووجد نديمُ نفسَه هائمًا على وجهِه لا يعرفُ أي اتِّجاه يقصِدُ. وقرَّر العودةَ إلى الطريقِ العام فلمْ يَدْرِ من أين. كلُّ مسالكِ الغابةِ تتشابَه. ولمسَتْ قلبَه يَدُ الفزعِ الباردةُ، فأخذ يستغيثُ بأخيه: «يوسف! أنا تائهٌ! لا أعرُف طريقَ الخروجِ من الغابةِ... أرجوكَ، يا أخي، ارجعْ، وسنذهبُ أنا وأنت لصَيدِ الطيورِ.»

ولمّا لمْ يُجِبْ، تأكَّد نديمُ من أنه تائهٌ هو الآخر، وأنه ابتعَدَ عنه، ولمْ يَعُدْ يسمعُ صوتَه. فهو رغمَ عِنادِه، عطوفٌ، طيبُ القلبِ، كجميعِ المغوليين.

وسارَ نديمٌ على غيرِ هُدىً حتى وجدَ نفسَه في مكان موحِشٍ لا أثرَ فيه لِقَدَمٍ ولا طريقٍ، فوقف يصيحُ ويستغيثُ في جميعِ الاتجاهاتِ لعلَّ أحداً يسمعه.

* * *

وكانت الجماعةُ قد توغَّلت في الغابةِ في طريقِها نحوَ البُحيرةِ. وفجأةً توقَّف رحّالٌ عن السيرِ، وطلبَ من رفاقِه السكوتَ والإنصاتَ. وترامى إلى سمعِهم صوتُ نديمٍ الشبيه بالعويلِ العالي، فقَصَدوه راكضين. وعرف رحّالٌ أنه صوتُ نديمٍ يطلبُ النجدةَ، فقال للجماعةِ: « ألمْ أقلْها لَكُم!؟ إن ذلك المغولي طالعُ نحسٍ! لابد أنه هو الذي يعتدي على أخيه! لنُسْرِعَ قبلَ أن يقضيَ عليه! »

وحين وصلوا إلى مصدرِ الصوت وجدوا نديمًا قد كَفَّ عن النداءِ، ووقفتْ غُصَّةٌ حامية في حَلْقِه، وانهمرتْ دموعُه غزيرةً

على خدَّيه... وأحاطتْ به الجماعةُ تسألهُ عمّا حدث، فأخبرَهم، وهو يَلومُ نفسَه عن ضياعِ أخيه. وطمْأنوه بأنه لا يمكنُ أن يكونَ ذهَبَ بعيداً، وبأنَّهم سينتشِرون للبَحثِ عنه.

وهمَّ الخمسةُ بالانتشار للبحثِ، فاستَوقَفَهُم رحّالٌ قائلاً: «انتظروا! إذا تفرَّقْنا بدونِ نظامٍ فَسنَتيه جميعًا، وسيُصْبِحُ أمامَ كلِّ واحدٍ منَّا سَبْعُ مشاكلَ بَدَل واحدةٍ! الغابةُ كالبحرِ، لا ترحَمُ! على كلِّ واحدٍ منّا أن يسيرَ في اتجاهٍ معيَّن وفي خطٍّ مستقيم، وينظرَ أثناءَ سَيْرِهِ إلى الخلفِ باستمرارٍ ليَرسُمَ طريقَ العودةِ ويتذكَّرَها جيداً. فطريقُ العودةِ تختلفُ تمامًا عن طريقِ الذهابِ، رغمَ أنَّها واحدةٌ! وعلى كُلِّ واحدٍ أن يَرْشُمَ ممرَّه بشيءٍ بارزٍ حتى يستطيعَ العودةَ إلى نقطةِ انطلاقِنا هذه.»

وعيّن لكلِّ واحد مسارَه، وطلبَ منهم النداءَ باسمِ يوسفَ في فتراتٍ متقاربةٍ. فإذا عثَر عليه أحدُهم صاحَ: «وجدْتُه! وجدْتُه!» وعاد به وهو يُنادي فإذا لم يعُدْ يسمَعُ نداءَ رفيقيه السائرَين عن يمينِه وشِماله، توقَّف وعاد من حيث أتى.

وانطلقَ الستةُ في اتجاهاتِهم، يركضون وينادون ويتوقَّفون

للنَّظر إلى الخلفِ، ورسمِ الطريقِ بالأعواد الجافّة. وبقي رحّالٌ في نقطةِ الانطلاقِ يُنصتُ إلى النداءات وهي تبتعدُ، ويشعُرُ بألمٍ في بطنِه من جرّاءِ الشعورِ بالذنبِ وتأنيبِ الضميرِ..

ولمْ تمضِ بضعُ دقائقَ على انطلاقِهم حتى اكفهرَّ الجوُّ، وأظلمتِ الغابةُ، وأومضَ البرقُ وقصفَ الرعدُ وانفتحتْ أبواب السماءِ عن مطرٍ غزيرٍ... ووجدَ رحّالٌ نفسَه يقفزُ من تحتِ شجرةٍ إلى بقعةٍ عاريةٍ مبتعداً عن الأشجارِ المبتلّةِ التي تكونُ هدفًا للصواعقِ! وحاوَلَ أن يناديَ رفاقَه فأغرَقَ هزيمُ الرعد والمطرِ صوتَه، وملأَ الماءُ فَمَه!

وقَوِيَ اعتقادُه بِنَحْسِ يوسفَ، وقرَّر أ ن يُقاطِعَ حتى أخاه نديمًا!

ونازَعَتْه نفسُه إلى الفِرارِ، ولكن أين المفرُّ؟!

وبنفسِ السرعةِ التي اكْفَهَرَّ بها الجوُّ وهطَلَ المطَرُ، أقلعتِ السماءُ وانقشَعَ السَّحابُ، وعادَ الضَوءُ يتخلَّلُ الأشجارَ. ورفع رحّالٌ عقيرَتَه بأسماءِ رفاقِه واحداً واحداً، وفي جميعِ الاتجاهاتِ. ولم يُنقِذْه من ضيقِه الشديدِ إلا صوتٌ بعيدٌ

ينادي باسمِه. وحين اقتربَ تبيَّن أنه صوتُ نديمٍ، فحمد الله وصاحَ مناديًا باسمِه. ولمْ تمضِ بضعُ دقائقَ حتى كانَ أغلبُ الأولادِ قد عادوا، ولم يتخلَّفْ إلا إبراهيم.

ولمْ يكنْ بحاجةٍ إلى سؤالِهم عن يوسُفَ، فقد وقَفُوا جميعًا يخْلَعون ملابِسَهم ويعصِرُونها. ووقفَ رحّالٌ ينادي باسْمِ ابرهيمَ، وتبعه الآخرون. وفي فجوةِ هدوءٍ سَمِعوا صوتَ إبراهيمَ قادمًا من جهةِ الغربِ، فأخذوا يتصايحون فَرحين مُتَحَمسين.

ودعا رحّالٌ اللهَ في نفسِه أن يكونَ إبراهيمُ عَثَرَ على يوسفَ، ولكنه حين ظَهَرَ كان وحدَه. وكان يرسفُ في حذاءٍ ثقيلٍ عامرٍ بالماءِ مكسوٌّ بالأوحالِ. وبادَرَهُم بسؤالِه: «هل عثرتُم على يوسفَ؟»

وبحثَ عنه بينهم فلمْ يجِدْه، فأضاف: «أنا عَثَرْتُ على بُحيرةٍ كبيرة قريبةٍ من هنا وقد رأيتُ على ضفَّتِها الأُخرى كوخًا خشبيًا، ربما كان لحارسِ الغابةِ. فتعالوا نذهبْ إليه لطلبِ النجدَةِ والمساعدةِ في البحثِ عن يوسفَ...»

ووافق الجـمـيعُ على الاقـتـراحِ، وكلُّهـم يفـكِّرُ في مـدفـأةِ الكوخِ!

ورغم ابتلالِهم وارتعاشِهم من البَرْدِ، فقد وقفوا ينظرون إلى البُحيرةِ الزرقاءِ الواسعةِ، وأشجارُ الغابةِ تنحسر عنها أمامَهم بإعجابٍ وانبهارٍ!

ولاحَ لهم الكوخُ فتسابقوا نحوَه. وحين وصلوا إليه أُصيبوا بخيبةِ أملٍ، كان بابُه مقفلاً ونوافذُه مُطَبَّقةً، ولا أَثَرَ للحياةِ فيه. وداروا حولَه وهم يتلاغَطون ويتساءَلون هل من حقِّهم في ظرفِهم الراهنِ أنْ يكْسِروا البابَ ويدخلوه، خصوصًا بعد أنْ عادتْ الغيومُ القاتمةُ تغطِّي السماءَ، وتُنذِرُ بوابِلٍ آخرَ.

وبينما همْ كذلك إذا سمِعوا صريرَ مِزْلاجِ الكوخِ العتيقِ، وانفتحَ البابُ وخرجت منه فُوَّهةُ بُندقيَّةِ صيدٍ. وفوجئ الأولادُ فابتعدوا مذعورين. وخرجَ من الكوخِ شيخٌ في حوالي السّبعين، يرتدي بذلةَ حَرَسِ الغابةِ ويعتمرُ قُبّعتَهم الرسميَّةَ. وقَفَ على عتبةِ الكوخِ ينظرُ إليهم ويظلِّلُ عينَيه بيدِه. وحين رأَوه اطمأنوا وعادوا صوبَه.

وسَلَّمَ عليه رحّالٌ فَرَدَّ السلامَ، وسأل هلْ بالكوخِ هاتف، فقال الشيخُ: «نعم، ولكنه مُعطَّلٌ.» وسألهم بِدَورِه لماذا يريدونه؟ فأخبَروه بضياعِ يوسفَ في الغابةِ، وبخَوفِهم على صِحَّتِه بعد ما قد يكونُ أصابهَ من بَلَلِ المطرِ.

ولاحظ الشيخُ ابْتِلالَ ملابِسِهم، فَفتَحَ لهم البابَ، ودعاهم للدخولِ وخَلْعِ ملابِسِهم. وكان بالمدفأَةِ نارٌ خامِدَةٌ، فحرَّكَها الشيخُ بسفودٍ من حديد، ووضعَ عليها حَطَبًا جديداً. ووزَّع عليهم بعضَ الأغطيَةِ، فنشَروا ملابسَهم فوق حبْلٍ والتفُّوا بالأغطيةِ وقَعَدوا حَولَ المدفأة.

وأضاءَ عليهم البرقُ المكانَ بنورِه الساطعِ الوهَّاجِ، رغم انقفالِ الكوخِ، فوضَعوا أصابعَهم في آذانِهم اتِّقاءَ هَزيمِ الرَّعدِ المنتَظَرِ. وبدأ الوابلُ بقطراتٍ كبيرةٍ على سقْفِ الكوخِ، وسُرعانَ ما اشتَدَّ وعَلاَ هديرُه. وجلسَ نديمٌ يُنصِتُ إليه ويطاردُ أبياتَ الشاعرِ المهجري ميخائيل نعيمة التي وقفتْ ترقُصُ داخلَ رأسِه، وكأنّ أحداً يردِّدُها ويُرغِمُه على سَماعها:

سقْفُ بَيتي حَديدْ          رُكْنُ بيتي حَجَرْ

فـــاعْـــصِـــفي يا رياحْ　　واهْـــطُـــلــي بـــالمـــطــرْ
واقْـــصِـــفي يا رُعـــودْ　　لـستُ أخْـــشـى خَـطَرْ
ســقْفُ بَيــتي حَــديدْ　　رُكْنُ بيــتي حَــجَــرْ

لمْ تكن الأبياتُ الرقيقةُ تعبِّرُ عن شعورِه الحقيقي، فقدْ كان شديدَ القَلَقِ على أخيه يوسفَ الهائمِ على وجهِه في هذا الطَّقسِ المتوحِشِ!

وكأنَّ الشيخَ قرأ فِكْرَه، فقال: «لا تقْلَقوا على رفيقِكُم، فلابد أنه عَثَر على مكانٍ للاحتماءِ من المطرِ. ففي الغابةِ كهوفٌ ومغاراتٌ كثيرةٌ.»

وأوشكَ إسماعيلُ أن يُعَقِّبَ على قولِه بأنَّ الكهوفَ والمغاراتِ كثيراً ما تكونُ مأوىً للوحوشِ المفترسةِ، ولكنَّه تراجعَ خِشْيَة أنْ يزيدَ في قلقِ نديمٍ.

وعلَّق نديمٌ على كلام الشَّيخ بقولِه: «ولكنَّ أخي يوسفَ ولدٌ غيرُ عادي. فهو مَغْولي ومحدودُ الذَّكاءِ.»

فأضاف رحّالٌ: «وطالعُ شؤمٍ على من يرافِقُهم! في الحقيقةِ، أنا لا أُدرِكُ حكمةَ الله في خلقِ ذلك النَّوعِ من المخلوقاتِ!»

فقاطَعَه الشَّيخُ بابتسامةٍ سمحاءَ: «للهِ في خَلْقه شؤونٌ، يا ولدي! وأفعالُه تعالى تتنزَّه عن العَبَثِ. وإذا لمْ نفهمْ حِكمتَه في خلقِه فَلِقُصورٍ في فَهْمِنا نحن، وليس لِعَشوائيَّةٍ في صُنْعِه لهذا الكونِ البديعِ! فاللهُ لا يعطي الواحدَ منَّا شيئًا دونَ أنْ يأخُذَ منه شيئًا، ولا يأخذُ دونَ أن يُعطيَ بالمقابل، فإذا أخَذَ من رفيقِكم هذا بعضَ ذكائِه، فلابدَّ أنه عَوَّضَه بشيءٍ آخر، كالشُّجاعةِ وقوة الاحتمالِ مثلاً. وهي خصائصُ ذلكَ النَّوعِ مِنَ الأولادِ.»

وكان الجميعُ ينصِتون إلى حديثِ الشيخِ فاغِرِي الأفواهِ إعجابًا بأفكاره. وبعد لحظةِ صَمتٍ، سأل رحّالٌ: «أحقًا ما تقولُ؟ كيف تعرِف؟»

فقال الشيخ: «أنا كذلكَ لي ولدٌ مغوليٌّ ومحدودُ الذكاءِ، ولكنَّ الله تعالىَ عوَّضه عمَّا نَقَصَ من ذكائِه بأكبرِ قلبٍ في الدنيا! وقدْ وُلِدَ لي ستَّةُ أولادٍ وبناتٍ، وتزوَّجَ البناتُ وذهبنَ مع أزواجِهنَّ، وهاجرَ الأولادُ إلى الخارجِ، وتزوَّجوا بأجنبيّاتٍ، وانقطعتْ عني أخبارُهم. فقدْ صاروا يستنكفونَ من

الانتساب إلى حارسِ غابةٍ فقيرٍ بسيطٍ من بلدٍ متخلِّفٍ. وتوفِّيتْ زوجتي، فلمْ يبقَ لي مُعينٌ ولا مؤنسٌ إلا ولدي عبدُالرحمن المغوليّ العامرُ بالعطفِ والمحبَّةِ والسَّخاء. وهو الذي يأتي للاطمئنانِ عليَّ كلَّ يومٍ، ويحملُ لي المؤونةَ. لِذلكم لا داعيَ للقلقِ على رفيقِكم التائهِ، فسنعثرُ عليه، بعد انحباسِ المطرِ، بإذنِ اللهِ.»

حكى الشيخُ مأساتَه مع أولادِه دون غضبٍ ولا مرارةٍ، بلْ أنهَى كلامَه بابتسامةٍ سمحةٍ. وحتى يُغيِّرَ الموضوعَ الحزينَ، سأله رحّالٌ: «هل تسمحُ لي بسؤالٍ شخصيٍّ؟»

فقال الشيخُ: «لا داعيَ للاستئذانِ، يا ولدي، فلَيسَ لي أسرارٌ!»

فقال رحّالٌ: «أرى أنكَ تجاوزتَ سِنَّ التقاعُدِ، وما زلتَ ترتدِي البذلةَ الرسميَّة، وتحمِلَ السلاحَ...»

فقال الشيخُ: «ملاحظةٌ ذكيَّة! ولذلك قصَّةٌ غريبةٌ لم أحْكِها قطُّ لمخلوقٍ. فهل تُحبُّون سَماعَها؟»

* * *

ووافقَ الجميعُ فَرحين، خُصوصًا وأنَّ تهاطلَ الأمطارِ لمْ يكنْ يُبشِّرُ بالتَّوقُّفِ ليُتيحَ لهم الخروجَ للبحثِ عن يوسفَ. فقال الشيخُ مسروراً باهْتِمامِ الأولادِ به والتِفافِهم حَولَه، وبالأنْسِ والحيويَّةِ اللذَيْنِ مَلأا عليه المكانَ، بعد طولِ استيحاشٍ:

«في اليوم الذي بلغتُ فيه الستينَ، توقعتُ أن يَطرُقَ البابَ عليَّ حارسُ غابةٍ شابٌّ، يُخبِرُني بتقاعُدِي، وبتعيينهِ مكاني. وداخَلَني قَلقٌ شديدٌ من مواجَهةِ الحياةِ والناسِ، بعيداً عن هذا الكوخِ وعنِ الغابةِ التي عِشْتُ فيها قرابةَ أربعين سنةً. وصارتْ هي أهلي وأحبابي، بعد ابني عبدالرحمن.

وفي تلكَ الليلةِ وقَع شيءٌ غريبٌ. كانت هذه البُحيْرَةُ الكبيرةُ قد جَفَّتْ وأصبحتْ بعد سنواتٍ من الجفافِ والجدْبِ مجرَّدَ غَوْرٍ عميقٍ تجري فيه بعضُ الجداولِ المنحدرةِ من الجبلِ. أيقظَني من نومي صوتُ قهقهةٍ عاليةٍ غيرِ آدميَّةٍ. وحشوتُ البندقيَّةَ بالرَّصاصِ، وخرجتُ بحذرٍ شديدٍ لأَستطلعَ الأمرَ. لمْ يكنْ شيءٌ يتحرَّكُ.

وترامى إلى سمعي من قِمَّة الجبلِ صوتٌ أجشٌّ، ولكنه واضحٌ يضحَكُ ويخاطبُ الغَوْرَ الجافَّ، بنوعٍ من الازدِراءِ، بما معناه أنَّه مُجرَّدُ منخفَضٍ حقيرٍ لا يلفِتُ نظرًا ولا يُثيرُ اهتمامًا... كان الجبلُ العملاقُ يفتخِرُ على البحيرةِ الجافَّةِ بشُموخِهِ وعُلوِّ مقامِه وسعَةِ أفقِه، وقَصْدِ الناسِ له للتَّسلُّقِ والتنزُّهِ والتزلُّجِ على الجليدِ. وأنهَى افتخارَه الوقِح بأبياتٍ شعريةٍ حَفِظْتُ منها هذه:

| | |
|---|---|
| أنا الجبلُ العالي! أنا الجبلُ العالي | أنا لشموخِ المجدِ أعظمُ تمثالِ |
| أرى الخلقَ دوني عِزةً ومهابة | وكلهم يرنو إليَّ بإجلالِ |
| فيا غورُ غُضَّ الطَّرفَ، إنك حفرةٌ | على مثلِها فخرًا أُجَرِّرُ أذْيالي! |

وعَلا من الغَوْرِ صوتُ نحيبٍ حزينٍ كأنه صادرٌ عن عشراتِ النساءِ الثَّكالىَ... فَلان قلبي للبحيرةِ المقهورةِ، وأحسستُ بالغضبِ لموقعِ الجبلِ المغرورِ ولِفِقْدِه الإحساسَ والرحمةَ لجارتِه البحيرةِ المنكوبةِ. ووجدتُ نفسي أواجِه الجبلَ وأصيحُ فيه بأعلى صوتي منددًا بقسوتِه واستعلائِه!

وقَهْقَ الجبلُ مستهزِئًا بي، أنا كذلك، وغطَّى صوتُه الهادرُ

على صوتي. ودون أن أشعرَ رفعتُ البندقية وأطلقتُ على قِمَّتِهِ النارَ مرَّتين. وتردَّدَتْ أصداءُ الطلقتين في سفحِ الجبل عاليةً صاخبةً. وفوجئتُ بطلقةٍ ثالثةٍ ورابعةٍ، فنظرتُ حوالَيَّ أبحثُ عن مصدرِهما، فإذا بطلقاتٍ أخرى أعلى وأضخمُ، وكأنها طلقاتُ مدافعٍ! وأدركتُ من البرقِ الذي سبقَها أنها كانت رُعودًا آتيةً من خلفِ الجبلِ. ونظرتُ إلى قمتهِ المدبَّبةِ، وكأنها أنْفٌ شامخٌ في رُعونةٍ وكبرياءٍ، فرأيتُ سحابتَين داكنتَين تصطدمان فوقَه، وانبعثتْ من بينهما صاعقةٌ هائلةٌ أصابتْ قِمَّةَ الجبلِ فكسَرَتْها ورمتْ بها، فنزلتْ مُتدحرِجةً إلى قاعِ الغَوْرِ! واهتزَّ الجبلُ وزُلزِل زلزالاً شديداً حتى خَشِيتُ أن ينهارَ على الكوخِ وعليَّ ويسحَقَنا!

وجاءني منه أنينٌ واستغاثةٌ. وصفَّقتِ الأشجارُ واهتزَّتِ الصخور واستعاذتْ باللهِ من شَرِّ الغرورِ وانشقتْ بطونُ السحابِ عن أمواجٍ هائلةٍ من الماءِ خشيتُ معها الغرقَ، فلجأتُ إلى الكوخِ خائفًا أرتجفُ، وجلستُ في أحدِ أركانه، وضممتُ المُصَحفَ الشريفَ إلى صدري، وأخذت أقرأُ ما

أحفظُه من القرآنِ الكريم، وأدعو اللهَ أن ينجيَني من غَضَبِه!

ولم يتوقف المطرُ الطوفانيُّ ثلاثةَ أيامٍ بلياليها، حتى خِفتُ أن يجرِفَ بي الكوخَ إلى الغَوْر. ولم أَعُدْ أعرفُ الليلَ من النهارِ، ولم أَنَمْ إلا نومًا متقطِّعًا عَامِرًا بالكوابيسِ ومشاهِدِ الغرَقِ والاستغاثةِ والجُثَثِ الطافيَةِ فوق الأنهارِ الجاريةِ. وكاد ينتهي ما كان معي من الطعامِ ولم يأتِ ابني لزيارتي. وخِفتُ عليه من المغامرةِ والقدومِ في ذلك الجوِّ المتوحِّشِ. وأخذ منِّي القلقُ والإجهادُ كلَّ مأخذٍ، فانخرطتُ في نومٍ عميقٍ ثقيلٍ...

ولم أَدْرِ كمْ نِمْتُ. ولم يوقظني إلا قَرْعٌ شديدٌ على البابِ. وحين فتحته، وجدتُ ابني عبدَالرحمن يهمُّ بضربه بحجرٍ كبيرٍ ليكسرَه. وحين رآني رمَى الحجرَ، وارتمى عليَّ، وطوَّقني بذراعيه، وأَجهشَ باكيًا ومُنفِّسًا عن كَرْبِه. لابد أنه كان يظنني ميِّتًا!

* * *

ونظرتُ إلى السماءِ فإذا هي زرقاءُ صافيةٌ صفاءَ البِلَّورِ.

ونظرتُ إلى الغَوْر فسقطَ فكّي من الدهشةِ والعجبِ! فقد تحوَّلَ الغَور الجافُّ إلى بحيرةٍ عظيمةٍ كاملةِ الامْتِلاءِ. وخُيِّل لي أنَّ سطْحَها الهادئَ الصقيلَ وجْهُ ابني عبدِالرحمن وهو يبتسمُ سعادةً ورضى ويُحدِّث بنعمَةِ الله...

وضممتُ ابني إليَّ بحرارةٍ وشوقٍ، وأنا أحمدُ اللهَ وأردِّدُ في سِرِّي: «آمنتُ بوجودِك، لا إلهَ إلا أنتَ!»

وطلبتُ من ابني أن يَبيتَ معي تلك الليلةَ ليُؤنسَ وحشتي، ويحدثَني عمَّا أحْدَثَتْه الأمطارُ الطوفانيَّةُ في المدينةِ. ولعَجَبي الشديدِ أخبرني بأنه لَمْ يأت لزيارتي لأنه أصيبَ بزُكامٍ حادٍّ خاف عليَّ من عدواهُ، وبأن المدينةَ لم تسقطْ بها أمطارٌ، وأنه لم يَرَ أثرَ المطرِ إلا حين اقتربَ من الكوخِ!

وفوجئ هو كذلك بالبحيرةِ. وبعد الغَداءِ خرجَ يتأمَّلُها ببراءةِ الأطفالِ. وسَمِعتُه يضحَكُ، فخرجتُ أسألهُ عما يُضحِكُه، فقال لي وهو ينظرُ إلى سطحِ البحيرةِ: «انظرْ، يا أبي، البحيرةُ قلبَتِ الجبلَ!»

ونظرتُ إلى انعكاسِ صورةِ الجبل على البحيرةِ، فإذا هو

فعلاً مقلوبٌ، قمتُه إلى أسفلَ وقاعدتُه إلى أعلَى!

وكأن الغابةَ المحيطة بالبحيرةِ، بجميعِ أشجارِها وطيورِها وحيواناتِها ونباتاتِها وصخورِها، سمعتْ تعليقَ الولدِ البريءِ، فأطلقتْ أصواتًا هامسة شبيهة بالقهقهاتِ، وهي تنظرُ إلى الجبلِ الذي طالما تكبَّرَ عليها وتعالَى ونظرَ إليها من أعلى، وعامَلَها باستصغارٍ واحتقارٍ!

وعلتْ من البحيرةِ أصواتٌ تُنشِدُ:

أيا أيها الجبلُ المتعالي

على الكائناتِ بدونِ خجلْ!

عَلَوْتَ بقدرِ انخفاضي أنا

وما ضاعَ مَنْ تُربَتي بك حَلْ

فإن زِدتَ طولاً وعرْضًا، فلا

تُفاخِرْ، فعقلُك خَفَّ وقلْ

فلو كنتَ معترِفًا بالجميلِ

ألْبسوك جميلَ الحُلَلْ،

ولو كـــان فـــيك التـــواضعُ طبـــعًـــا

لأصـــــبــــــحتَ أعظـمَ بل وأجلْ!

فلولا انخـــفــاضُ البُـــحـــيْــرات مـــا

عـــــــلا وتطـاولَ أيُّ جـــــــبــلْ!

ومن ناحيةِ الجبلِ علا شهيقٌ وزفيرٌ ونحيبٌ، وانحدرتْ من قِمَّتِه جداولُ ماءٍ كأنها دموعٌ جاريةٌ، فكفَّتْ البحيرةُ والغابةُ عن الضَّحكِ والتَّشَفِّي من الجبلِ النَّادمِ التائبِ.

ولمْ ينتــهِ عَــجَــبي من تلك الظاهِرَة، ولن ينتــهيَ... وسأحمِلُه معي إلى قَبْري!

وحين حكيتُ لابني عبدالرحمن قصَّةَ الجبلِ والغورِ كما شاهدتُها من بدايتِها لم يخامِرْه أدنَى شكٌّ في صِدقِها.

وعلى مـائدةِ العَـشـاءِ سـألتُـه: «ألـمْ تَصِلْ رسـالةٌ من إدارةِ المياهِ والغاباتِ أو يأتِ أحدٌ لإخباري بتقاعُدي؟»

فأجاب: «لا، هل تريدُ التقاعدَ، يا أبي؟»

قلت: «لا، أنا أحبُّ عـملي هذا، ومـا زلت قـادراً على القيام به على أحسنِ وجهٍ. وأخشى إذا تقاعدتُ أن أ موتَ

خُمولاً وقُنوطًا!»

فنظر إليَّ بعينيه الواسعتين، وسأل: «لماذا إذن لا تسألُ اللهَ أن يصرف عنك عين الإدارة؟»

فقلتُ: «ليس عدلاً يا ولدي، فهناك شَبابٌ كثيرون يبحثون عن عملٍ، وأنا بلغتُ سِنَّ التقاعدِ القانونيةَ، والقانونُ فوقَ الجميعِ...»

وحين قُمنا لصلاةِ العشاءِ سمعتُ عبدَالرحمنِ يدعو بهمْسٍ مسموعٍ، ويقولُ: «ياربِّ أَعِنْ والدي! يا رَبِّ لا تقتُله خُمولاً وقُنوطًا!»

ولمسَتْ مشاعرُهُ النبيلةُ أوتارَ قلبي فدمَعَتْ عيناي، وقلتُ: آمين!

ويبدو أن بابَ السماءِ كان مفتوحًا على مِصْراعيْهِ في تلك الليلةِ، فلو كان طَلَبَ أيَّ شيءٍ لاستجابَ اللهُ له! فقدْ صادفتْ دعواتُه ساعةَ الاستجابةِ!

فلمْ تمضِ بضعةُ أيام على امتلاءِ البحيرةِ حتى شاعَ خبرُها بين أهلِ المدينةِ والمِنْطقةِ، فجاؤوا أفواجًا للتَّفرُّجِ عليها والتَّنزُّهِ

على ضفافِها الخضراءِ، وظهرتْ على سطحها مراكبُ شراعيةٌ ومطاطيَّةٌ تعبُرُها طولاً وعرضًا.

ولا أدري من نَبَّه الأطفالَ إلى صورةِ الجبلِ المقلوبِ المنعكِسَةِ على البحيرةِ الصَّقيلةِ، ولا كيف وجدوا منظرَه العجيبَ مسلِّيًا، فأخذوا يُشيرون إليه ويتضاحكون. . .

ولما لمْ يكن هناك مُنْقِذُ غرقى فلقد تجنَّدتُ أنا وابني عبدُالرحمنِ لحراسةِ الأطفالِ. واقتسمنا ضفَّتَيِ البحيرةِ بيننا.

وسار كلُّ شيءٍ على ما يرامُ حتى دخَلَتْ خادمة البحيرة على متْنِ قاربٍ مطاطي، ومعها طفلٌ في الثالثةِ. وما إن توسَّط القاربُ البحيرةَ حتى سقط الطفلُ في مائها المثلَّجِ وأخذ يَغرَق! وعَلا صُراخُها، فخلَعَ ابني سُترَتَه وحِذاءَه بسرعةٍ مُدْهشةٍ، وارتمى في الماء، وسَبَحَ نحو الصبيِّ الغريقِ وأمسَكَ بطَوْقِ عُنُقِه من الخلفِ ورفَعَهُ إلى السطحِ.

وكان صراخُ المرأةِ قد ملأ أرجاءَ البحيرةِ، فهبَّ إلى مشاهدةِ الحادِثِ خلقٌ كثيرٌ. وكان عبدُالرحمنِ قد وصلَ بالطفلِ إلى القاربِ، فأمسكتِ المرأةُ بيدِه ورفعَتْه إليها. وصعدَ

عبدالرحن خلفَه، فأمسكَ به وقَلَبَهُ على وجهِه، ورفع رجليهِ إلى أعلى ليُفْرِغَ ما في جوفِه من ماءٍ.

وحين أفاقَ الطفلُ من دهشةِ الحادثِ، وأدركَ ما وقعَ له، أخذ يبكي، فضمَّتْه المرأة إلى صدرِها. واطمأنَّ الجميعُ على سلامتِه.

وتولَّى عبدُالرحمنِ التَّجديفَ حتى وصلَ الضِّفَّةَ، فنزلَ وأخذَ الطفلَ من ذراعَيه مهدِّئًا رَوعَه. وكان والدُ الطفلِ يتابع الأحداثَ ذاهلاً ممتَقِعَ الوجهِ. وجاءتْ والدةُ الطفلِ فخلعتْ ملابِسَه، ولفَّتْه في فوطةٍ كبيرةٍ دافئةٍ، وراحتْ تُدَلِّكُ أعضاءَه، وتسقيهِ حليبًا دافئًا. وأرسلَتْ عبدَالرحمنِ إلى الكوخِ ليُغَيِّرَ ملابسَه حتى لا يُصابَ بِزُكامٍ.

وقدَّر اللهُ أن يكونَ والدُ الطفلِ رجلاً غنيًا، فلم يكْتفِ بشُكرِ عبدِالرحمنِ والدُّعاءِ له، بل أصرَّ على أن يكافئَه بما يضمَنُ مستقبَلَه، إذ لمْ يكُنْ بما يساوي حياةَ ابنهِ وقرَّةِ عينهِ!

وكانت هذه الأرضُ التي تقعُ عليها البحيرةُ معروضةً للبيعِ، فاشتراها ووهَبَها للناسِ متنزَّهًا مجانيًّا، وعيَّنني أنا

وابني عبدَالرحمنِ حارسَين عليها بأجرٍ جيِّدٍ... وهكذا فرَّجَ اللهُ ضيقي، وأذهبَ عنِّي شبَحَ التقاعُدِ المخيفِ! كل ذلك ببركةِ الولدِ المغولي ويُمْنِ طالعه!»

وظهرَ الندمُ والخجلُ على وجْهِ رحّالٍ، فنهض قائلاً: «قوموا! تعالوا نبحثْ عن يوسُفَ!»

وبحثوا بينهم عن نديمٍ أخي يوسُفَ فلم يَجِدوه. وحين همُّوا بالخروجِ للبحثِ عنه حَوْلَ الكوخِ أخبَرَهم إسماعيلُ بأنه أَسَرَّ إليه بأنه ذاهبٌ للبحثِ عن أخيه. وطلبَ منه ألاّ يُخبِرَهم حتى يفْتَقِدوه ويسألوا عنه. فقد كان يشعُرُ بضيقٍ شديدٍ ويَعُدُّ نفسَه مسؤولاً عن ضياعِ أخيه، ويعتبِرُ بقاءَه معهم تفريطًا في واجبه.

وخرجتِ الجماعةُ وتفرَّقتْ للبحثِ عن نديمٍ وأخيه يوسف.

* * *

ودخلَ رحَّالٌ الغابةَ في نفسِ الطريقِ التي جاؤوا منها. وأخذَ يُنادي باسْمِ نديمٍ ويوسفَ في كلِّ اتجاهٍ ويُصيخُ بسَمْعِه،

ثم يعودُ إلى النِّداءِ. وسار في خطٍّ مستقيمٍ إلى أن وجَدَ نفسَه في مكان مُوحِشٍ لا أثر فيه لأَقدامِ الراجلين.

وفي هدأةِ الغابةِ المبتلَّةِ أحسَّ كأنَّ أحداً يُراقِبُه! والْتفتَ فكاد قلبُه يتوقَّف! كان وراءَه كلبٌ متوحِّشٌ كبيرٌ، يَهِرُّ ويُكَشِّرُ عن أنيابِهِ، ويخترِقُهُ بنظراتِهِ الوحشيَّةِ الجائعة.

ورنَّ في أُذُنِهِ صوتُ أبيه: «هاجمْ! هاجمْ، يانديم!»

كان أبوه يوصيه وهما في الطَّريقِ إلى المزرعةِ بمهاجمةِ الكلابِ إذا نبحَتْه، وبألاَّ يولِّيها ظهرَه أبداً! فذلك تشجيعٌ لها على مُهاجمَتِه! ولمْ يكَدْ يستجْمِع قوَّتَه، ويندفعُ نحو الكلبِ حتى كان هذا قد ارتَمى على صدرِهِ، وطَرَحَه أرضاً، وفتح فكَّيه ليُطْبِقَ بهما على نَحْرِهِ!

وتذكَّر رحّال ما كان يفعلُه أثناءَ عراكه الودِّيِّ مع كلبه الراعي الألماني الضخم «رعْدٍ»، فأدخَلَ ساعدَه في فمه، ودفَعَه بقوَّة إلى النهايةِ ليمنَعَه من إطباقِ فكَّيه، وطوَّقَ عُنُقَه بذراعهِ الأخرى ليُنْهِكَه. ولكنَّ الكلبَ المتوحِّشَ كان أقْوَى وأشرسَ من كلبِهِ، فدفَعَ رحّالاً بأماميتيه، وافْتَكَّ نفْسَه من قبضتِه،

وعاد إلى الهجومِ بشراسةٍ أشدّ!

وأيقنَ رحّالٌ أنه هالكٌ، فوضَع ساعدَيه على وجهِه ونحْرِه ليتفادى أنيابَ الوحش. وشمَّ رائحةَ الموتِ فاستسلم! وغرزَ الوحشُ أسنانَه في ساعدِه الأيسرِ، فَصَرَخَ من الألم...

* * *

وتوغَّل بقيةُ الأولادِ في الغابةِ بحثًا عن نديمٍ ويوسُفَ. وفجأة توقَّفَ إسماعيلُ عن السَّيرِ، وطلب من الجميعِ السُّكوتَ والإنصاتَ. وترامى إلى أسْماعِهم صوتُ استغاثَةٍ يائسةٍ، فقصدوا ناحيتَه. وما كادوا يَصِلُون إلى مصدرِ الصَّوتِ حتى فوجئوا بمنظرِ الكلبِ المفترِسِ، وهو يهمُّ بالانقضاض على حَنْجرةِ رحّالٍ...

وتسمَّر إسماعيلُ في مكانه لحظةً، وقد جمَّدَه الرُّعْبُ! وخرج من الصَّدمةِ سريعًا، وهمَّ بالفِرارِ خشيَةَ أن ينقلِبَ الوحشُ عليه! وانتقل خوفُه إلى بقيةِ الأولادِ فهمُّوا هم كذلك بالابتعادِ...

وفي نفسِ اللحظةِ خرج يوسُفُ يعدو من بين الأشجار،

وارتمىَ على ظهْرِ الكلبِ الكبيرِ، وطوَّق عُنُقَهُ بذراعِه القويةِ، وعَصَره عصراً شديداً سدَّ حَنْجَرَتَه، ومنعه من التنفُّسِ!

وعاد إسماعيل والأولادُ، ووقفوا يُحَمْلِقون غيرَ مصدِّقين في يوسفَ وهو مشتَبِكٌ مع الوحشِ في معركةٍ حتى الموت...

وجاهدَ الوحشُ بكل قُواهُ ليخلِّصَ نفسَه فلمْ يُفلِحْ. وبقي يوسفُ مُطْبِقًا على عنقِه كمِلْقاطٍ من حديدٍ حتى ارتخَى جسدُه، وأخذ ينتفِضُ انتفاضَةَ الاحتضارِ! وعندَها تركَه يوسفُ، وقام عنه وهو جثَّةٌ هامدةٌ!

وفتح رحّالٌ عينيه، فرأى يوسفَ ينفُضَ عن ثيابِه شَعْرَ الكلبِ. ونظر إلى الكلبِ الميِّت وقد عقدتْ الدهشةُ لسانَه، فوقف ينظرُ إلى الكلبِ مرةً وإلى يوسُفَ أخرى غيرَ مصدقٍ ما يرى!

وحين أدرك رحَّالٌ ما صَنَعَه يوسفُ الذي كان يعتبِرُه مجرَّدَ مغوليٍّ لا ينتمي إلى الجنسِ البشريِّ، ذهب إليه وعانقَه باكيًا، وضمَّه يوسف إلى صدرِه بقوَّةٍ وحنانٍ.

وتسابقَ الأولادُ إلى تهنَئَةِ يوسفَ والثناءِ على بُطولتِه التي

أنقذتْ رحّالاً من موتٍ بَشِعٍ مُحقَّقٍ!

وفي هذه اللحظة ظهَرَ نديمٌ الذي كان هائمًا على وجهِه في الغابةِ بحثًا عن أخيه، فحكى له الأولادُ عن معركةِ يوسُفَ البطوليَّةِ مع الكلبِ المتوحِّشِ، وأرَوه جثَّتَه الهامدةَ.

واعتذَر رحّالٌ ليوسفَ عن سوءِ معامَلَتِه الصادرةَ عن تصديقِه لآراءَ المشَعْوِذين وأقسمَ ألاَّ يُنْصِتَ إليهم أبداً. وقبَّل رأْسَه وقال له:

– ماذا جَرى لك؟

– أين كنت؟

– أين قضيتَ كلَّ هذا الوقتِ؟

ووقف هو يُجيبُ، سعيداً بالاهتمامِ المفاجئِ، بعْدَ المطاردَةِ والجفَاءِ. قال موجِّهًا الكلامَ إلى أخيهِ نديمٍ: «حين بدأتَ ترجُمُني بالحجارةِ أطلقتُ ساقيَّ للريحِ، وركضتُ هاربًا حتى أوقفني البرقُ والرعدُ، ثم المطرُ الغزيرُ. وبحثتُ عن مكانٍ أختبئُ فيه، فوجدتُ مغارة ودخلتُ إليها وجلستُ في الظلامِ، أنتظرُ توقُّفَ المطرِ.

وبينمـا أنا كـذلك، أحسَسْتُ بشيءٍ يتحرَّكُ ورائي، ويلْمَسُ ظَهري، فأصابني فزعٌ شديدٌ، وخِفتُ أن أكونَ في جحر أفعَى أو وكْرِ حيوانٍ مفترسٍ.

وقفزتُ إلى بابِ المغارةِ، ونظرتُ إلى داخِلها، وقد بدأتْ عينايَ تألفَانِ الظَّلامَ، فاطْمأنَّ قلبي، وتنفَّسْتُ الصُّعَدَاءَ!

كان بداخلِ المغارةِ خِشْفٌ جميلٌ - غزالٌ صغيرٌ حديثُ الولادةِ - ينظر إليَّ بعينين كبيرتين... فزحَفْتُ عائداً نحوه، واقتربتُ بوجهي من وجهِهِ فلمْ يخَفْ ولم ينفُرْ، بل أخذَ يشُمُّ أنفي بأنفِه البارد. رُبما ظنني أمَّه! فقلت في نفسي لابدَّ أنه جائعٌ.

وتذكرتُ أنني كنتُ أحملُ في جِرابِ طعامي عُلْبَةَ حليبٍ كرتونيَّةً، فأخرجتُها، وقَضَمتُ زاويتَها الحادَّةَ، وأدخلتُ فتحتَها في فمه، فأخذ يمتصُّ الحليب بشهيَّةٍ كبيرةٍ.

وكان المطرُ ينزلُ خفيفًا رتيبًا خارجَ المغارةِ. وفجأةً عاد إلى قوَّتهِ السابقةِ، وأظلَمَ مدخلُ المغارةِ، وتدفَّقتْ إلى داخلها أفواجٌ من الطيورِ الباحثَةِ عن ملجأٍ، وملأت المكان... ولم

تكترِثْ بوجودي، بلْ حطَّ بعضها على رأسي وكتفي وظَهْر الغزالِ الرضيعِ.

وتذكرتُ أننا جئنا إلى الغابةِ لصيدِ الطيورِ، فقلتُ: هذه فرصتي! وخطَرَتْ ببالي فكرةٌ، فقررتُ تنفيذها في الحال.

وبحركاتٍ بطيئةٍ أخرجتُ الشبكةَ التي كانت في جرابي، وزحفتُ بهدوءٍ بين الطيورِ الجاثمةِ، وجعلتُ من الشبكةِ ستاراً على بابِ المغارة، وثبَّتُّه بالأوتاد، وجلستُ بين الطيورِ أنتظرُ أن يصحوَ الجوُّ، والغزالُ في حجري وأنا أُلاعِبُه، وأُمْسِكُ ببعضِ الطيورِ وأُمْسِّدُ ظهورَها وهي راضية.

وحين أقلعتِ السماءُ خرجتُ للبحثِ عنكُم.

ومن بَعيدٍ جاءني صوتُ أخي وهو ينادي باسْمي، فقصدتُ مصْدَرَ الصوتِ. وحين اقتربتُ منه رأيتُ المشهَدَ المرعبَ الذي شاهدتموه. وفقدتُ الإحساسَ بكلِّ شيءٍ. وبحثتُ عن شيء أدافع به عن أخي، فوجدتُ لِحُسْنِ الحظِّ تلك الهَراوةَ الغليظةَ!

وسأله إسماعيلُ: «ماذا كنتَ ستفعلُ، لو لمْ تجدْ الهراوةَ؟»

فقال يوسف ضاحكًا ضحكةً بلهاءَ: «كنت سأرتمي عليه من الخلْفِ، وأطوِّقُ عنُقَه بذراعي بكلِّ قوتي، ولا أتركُه إلا وهو ميِّتٌ أو يقتلُني!»

وغمزَ عَسُّو الجماعةَ، غيرَ مصدِّقٍ حديثَ يوسُفَ عن المغارةِ وما فيها، وسأله: «وأين المغارَةُ والغزالُ والطيورُ؟»

وهَمَّ يوسُفُ باصطحابهم إليها، ولكنه توقَّفَ متردِّداً، وقد تشابهتْ عليه المسالكُ. فابتسم عَسو، وغمزَ الرِّفاقَ، وكأنَّه يقول: «ألمْ أقلْها لكم!؟ هذا المغولي يخلِطُ بين الحقيقةِ والخيالِ!»

ولكنَّ يوسفَ تذكَّر الطريقَ بآثارِ قدمَيه على الأرضِ المبتلَّةِ، فقادَهم حتى أوقفَهم على بابِ المغارةِ، وقال منتصراً: «هذه هي المغارةُ!»

وزحف تحت الشَّبكةِ بهدوءٍ، وطلب منهم أن يفعلوا مثلَه.

وبداخلِ المغارةِ أشعلَ رحّالٌ عودَ ثِقابٍ، فبَهَرَهُم ما رأَوا من تراكُمِ الطّبورِ على الأرضِ وفي شُقوقِ الجدُران وثقوبِها.

ونهضَ الغزالُ الصغيرُ، وسعَى نحوَهم ببراءةٍ وفضولٍ صبياني، وكأنه يرحِّبُ بهم، فاجتمعوا عليه يلْمسونه ويُداعبونه فَرِحين بهذهِ اللعبةِ الحيَّةِ...

وأصدرَ رحّالٌ أوامرَه بفتحِ الأقفاصِ المطويَّةِ وملْئِها بالطيورِ. وحين امتلأتْ أزالوا الشبكةَ عن بابِ المغارةِ وهَشُّوا على الطيورِ الباقية فرفرفتْ نحوَ الفضاءِ الواسعِ حُرَّة طليقةً...

وتساءَل نديمٌ: «ماذا سنفعلُ بالغزالِ؟ أليس الأفضلُ أن نتركَه لأمِّه؟»

وتجهَّم وجهُ يوسُفَ، وضمَّ الغزالَ إلى صدرِهِ مستعِدًّا للرَّفضِ والهروبِ به. فقد أحبَّ هذا الحيوانَ الصغيرَ اللطيفَ...

فقال رحّالٌ: «الأحسنُ أن نأخذَه معنا. فقد تكون أمُّه هجرته، أو افترسَهَا أحدُ وحوشِ الغابةِ حين خرجتْ ترعَى. وإلا لكانت عادت إليه أثناءَ العاصفةِ.»

ويبدو أن منطقَ رحّالٍ أقنعهم، فحمَلوا أقفاصَهم، وتحرَّكوا صَوْبَ المدينةِ تحت شمسِ المساءِ الصفراءِ الباهتةِ...

وعادت الابتسامةُ إلى وجهِ يوسُفَ، فحمَل الغزالَ الرضيعَ بين ذراعيه ومشى وسَطَ الجماعةِ يُغَنّي معهم الأناشيدَ، ويشعُرُ لأولِ مرةٍ، بأنه واحدٌ منهم...

## هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر. يقرب [illegible] الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوالم [illegible] بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر [illegible] فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ال[illegible] الحديثة للشباب في العالم العربي.

Bibliotheca Alexandrina
0353524
736
28r




